القدوة الصالحة في الوالدين (٢٥)

أهمية القدوة الصالحة:

جاء في الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]. وتدل هذه الآية الكريمة ، على أن تربية الوالدين لأبنائهم على نهج الإسلام ، لا تكون إلا تربية الذات أولاً ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. إذ لما كان الطفل ضعيفاً مقلدا ، فهو كالإسفنج ، يمتص ما يشاهده ويلحظه ويلمسه ، امتصاصاً يتمثله في مخزونه الفكري والعاطفي بشكل لا شعوري فيظهر أثر ذلك في شخصيته عند تكاملها مع نضجه.

---

(٢٥) الأسرة ورعاية الذات الإنسانية للأطفال – تأليف ريما كمال الضامن –١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

لذا ، فإن تربية الأب لنفسه ، والأم لنفسها ، تشكل القاعدة الأساسية الأولى للتربية الإسلامية الصحيحة للأبناء. وبدون توافر القدوة الصالحة ، يصبح أي توجيه تربوي للطفل عديم المعنى والأثر ، بل إنه يؤدي إلى فقدان الطفل توازنه النفسي. فحين يرى الموجه له ، الأب أو الأم بعيداً عن تطبيق ما يوجهه إليه ، يغدو لسان حال ذلك الطفل مماثلاً لما جاء في الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف: ٢].

ولما كان الهدف النهائي للتربية الإسلامية للبالغ الراشد أن يغدو صاحب نفس لوامة واعية ، أي نفس ذات ضمير حي مستوعبة لمكارم الأخلاق وقادرة على انجاز العمل النافع – كما تم توضيحه تحت بند هدف التربية الإسلامية – ، فإن هذا القسم سيعرض لما يجدر بالوالدين أن يلتزما به من انتهاج لمكارم الأخلاق

والعمل النافع ، وفق المفهوم الإسلامي لكل منهما.

ولا يحسبن الأب ، أو الأم أن الوقت قد فات ليغير ما في نفسه فيزكيها رحمة بنفسه أولاً ثم بأبنائه ، كلا فقد قررت الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

نعم إن مجاهدة النفس لتغييرها حتى تسير على طريق مكارم الأخلاق والعمل النافع ، يزداد صعوبة كلما تقدم الإنسان في عمره ، إلا أن الإرادة الصادقة ، كفيلة بتذليل كثير من عقبات التعود التي ترسخت في النفس البشرية. ولنا في الصحابة الكرام ، خير مثل على التبديل الواضح الذي حدث في سلوكهم ، مع انتقالهم من عادات الجاهلية إلى ممارسات الإيمان في غضون فترة قصيرة.

إن التربية السليمة للأبناء لا تتطلب مالا ولا

شهادات جامعية عليا وإنما قدوة صالحة مفعمة بالعطف والحب ، وقدرة على الصبر والتحمل ، استعداد للمعرفة. ومفاهيم مكارم الأخلاق والعمل الصالح مترابطة متكاملة ، ما أن يرسخ احدها في النفس حتى يؤدي إلى الآخر ، مما يسهل عملية تزكية النفس الإنسانية. كما أنها ترتكز في مجملها على نهج ذكر الله الذي يجدر بالوالدين الالتزام به.

ذكر الله:

توضح الآية (١٣٥) من سورة آل عمران أن الركيزة الأساسية لبناء النفس اللوامة (الضمير الحي) إنما هي ذكر الله ، وذلك في قوله تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقد دلت آيات كثيرة على أثر ذكر الله وما يحدثه من طمأنينة وهدوء بال في النفس الإنسانية ، ومن ذلك الآية (٢٨) من سورة الرعد: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد وضع الشارع جلت قدرته إرشادات من شأنها إعانة المؤمن على ذكر الله ، لتعديل مسيرته إذا ما أصابها ميل للانحراف ، وهي تلاوة القرآن وإقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحج لمن استطاع سبيلا. وهي فرائض معلومة يجدر بالمؤمن الالتزام بها قلباً وقالباً حتى تعطي النتيجة المتوخاة منها. فمن حاد عن الالتزام خضع لوسوسة وإغراء الشيطان ، كما توضح الآية (٣٦) من سورة الزخرف: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وأداء الفرائض الإسلامية مرتبطة ارتباطا عضوياً بفعل الخير الذي يتم عليه الحساب ، كما تدل الآية (٧٧) من سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج: ٧٧].

ومن هنا أنذرت الآيات (٤-٧) من سورة الماعون:﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤ – ٧]، للإشارة إلى أن أداء الفرائض والشعائر دونما وقع في القلب ، وترجمة إلى العمل الصالح ليست من الإسلام في شيء ، فاستحق من يؤديها مراءاة ودجلا أن ينذر بكلمة الويل.

ولقد فرضت الصلاة ، عمود الإسلام ، لتذكير النفس باجتناب السوء كما توضح الآية (٤٥) من سورة

العنكبوت: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥]. والزكاة مؤشر مادي على ذكر الله وتقواه ، بهدف تهذيب النفس الإنسانية وضبط شهواتها لتتحسس حاجات الآخرين ، كما تدل الآية (١٠٣) من سورة التوبة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].الصوم معوّد للنفس على الصبر والسيطرة على الشهوات ، كما يذكر الحج الإنسان بفضيلة التواضع والتعاون.

ويجدر أن نبين هنا حكم فريضة اعترى تطبيقها بعض سوء الفهم ، وهي تلاوة القرآن الكريم ، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ مخاطباً الناس كافة ليذكر بتقوى الله كما توضح الآية (٢) من سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].لكنا نجد في أيامنا هذه قطاعاً ليس ضئيلاً من المسلمين ، يقرؤون القرآن دونما تدبر لآياته ، ظانين خطأ أن القراءة المتدبرة مقتصرة على رجال الدين. وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من جيل لا حق يسري فيه هذا الظن بقوله « أن من ضئضئي (أي بعد جيلي) هذا ، قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية».

فالمسلم مأمور أن يعي محتويات التنزيل الحكيم. هكذا كان السلف الصالح الذين حدث عنهم أبو عبدالرحمن السلمي بقوله « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات ، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ،

وقالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً». فالتدبر لا يعني التعمق في أصول الفقه في العبادات ولا في أحكام الإسلام في المعاملات التخصصية، بل المعرفة لأحكام الإسلام العامة التي يجدر بكل مسلم الإلمام بها لتطبيق مدلولاتها في حياته.

ومن الصور الأخرى لذكر الله الشكر له، إذ تقرر الآية (٧) من سورة إبراهيم ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]. ومن صوره اللجوء إليه والدعاء له، كما توضح الآية (٦٠) من سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. ويرتبط ذكر الله بعقد النية على العمل الجاد، كما توجه الآيتان (٢٣-٢٤) من سورة الكهف ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف: ٢٣ –٢٤]

مكارم الأخلاق:

صح في الحديث الشريف أنه قال « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ». ومن هذه المكارم في الإسلام:

الصدق:

فالمؤمن صادق مع نفسه ومع غيره ، في قوله وعمله ، في السر والعلانية. وقد أكد الإسلام أهمية الصدق وفضيلته وحذر من الكذب في جميع صوره فقد قال الرسول ﷺ«إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ». والحق أنه لا يكاد يعقل أن يؤمن المرء ويكذب! فهو يدرك أن كل ما يقوله ويفعله معلوم لكاشف الغيب ، كما توضح الآية (١٣) من سورة الملك ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك:١٣]. ولهذا نلحظ توجه

سيدنا إبراهيم ، في الآية (٨٤) من سورة الشعراء بدعواه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء:٨٤].

والمؤمنون الصادقون يوفون إذا عاهدوا ، كما تصفهم الآية (٢٠) من سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد: ٢٠]، وكما قال النبي ﷺ(لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له). إنهم يدركون عظم خسارة من يحلف بالله زوراً ، لما يتركه ذلك من انطباع سيء في نفوس الآخرين ، كما توضح الآية (٩٤) من سورة النحل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

ومن مظاهر الكذب أيضاً ادّعاء المرء ما ليس فيه ، وتناقض قوله مع عمله ليوافق مصلحة شخصية ، كما توضح الآيتان (٢-٣) من سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٢ – ٣]. وهو سلوك إذا استفحل في نفس المرء غدا منافقاً ، كما تذكر الآيتان (١٤٢-١٤٣) من سورة النساء:﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢ –١٤٣]. وحول ذلك قال النبي ﷺ« تجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ».

التهذيب:

الكلمة المهذبة طيبة يمتد أثرها إلى قائلها ومن حوله ، والكلمة الخبيثة لا تعود على صاحبها إلا بالنبذ والضرر.

ومن التهذيب تعويد النفس على الحلم واللطف في التعامل مع الآخرين ، كما تشير الآية (٥٣) من سورة الإسراء: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء:٥٣].

ومن مظاهر التهذيب الحياء الذي وصفه الرسـول الكريم ﷺبقوله «الحياء شعبة من شـعب الإيـمان ». ولا يعني الحياء الانكسار والخنوع ، فـذلك يجبـه الإسـلام ، وإنما يعني نزاهة اللسان والبعد عن البـذاءة والفحـش ، كما قال الرسول ﷺ« ليس المؤمن بطعـان ولا لعـان ولا فاحش ولا بذيء».

ويحل المؤمن خلافاته داخل بيته وخارجه بتحكيم أمر الدين والحفاظ على المـودة والـتراحم ، كـما توضـح الآية (٥٩) من سورة النسـاء: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ

إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن توجيهات الرسول ﷺ حول ذلك، أنه ﷺ جاء يوماً إلى بيت ابنته فاطمة < فلم يجد علياً > فسألها: أين ابن عمك؟ فأجابت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني. فخرج الرسول ﷺ وقال لرجل: أنظر أين هو، فأجابه الرجل: هو في المسجد راقد. فجاء الرسول ﷺ علياً < وهو مضطجع في المسجد، وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل النبي يقول لعلي >: قم أبا تراب، قم أبا تراب. هكذا بدأ الرسول الكريم ﷺ يداعب علياً ليستل من نفسه أي غضب، قبل التحدث إليه بشأن خلافه، إنما سار على تعاليم الإسلام باللجوء إلى الله في المسجد، وهو أبعد الأماكن من إغواء الشيطان.

ولقد عرض الإسلام لبعض مظاهر الخبث

الفاسد ، كالحديث بالإثم للوصول إلى غرض شخصي أو لمجرد التسلية ، فتقوى اللسان من تقوى القلب ، كما توضح الآيات (١١-١٢) من سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الحجرات: ١١ – ١٢].

وواجب المسلم لا يقتصر على تهذيب نفسه ، وإنما يمتد إلى استنكار الكذب وأفك الحديث. كما أن تهذيبه يمتد في تعامله إلى جميع الناس من غير المسلمين كما توضح الآية (١٠٨) من سورة الإنعام: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ ﴾ [الأنعام:١٠٨]. كما أن مقابلة الإساءة الشخصية بالحسنى ، من شأنها إشعار المسيء بأثر الإيمان في النفس المسلمة ، كما توجه الآية (٩٦) من سورة المؤمنون: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٦].

الصبر:

المؤمنون صابرون على مشقات الجهاد في سبيل دينهم ، كما تصفهم الآية (١٤٢) من سورة آل عمران: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].ومن مظاهر الصبر الواجبة على المسلم ، الصبر على تقلبات الأيام وصروفها ، التي تحدث لحكمة إلهية تمتحن مدى إيمان

من تقع له.

وهو لا يلعن هذه الأحداث ، بل يصبر ويحتسب كما جاء في الحديث القدسي « قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار ». والمؤمن في صبره يظل بعيداً عن اليأس والقنوط ، يدرك أن رحمة الله بعباده واسعة ، كما تدل الآية (٨٧) من سورة يوسف:﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

ومن مستلزمات الصبر ، الحد من الغضب الذي يعمي البصيرة ويؤدي بصاحبه إلى الندم ، كما توضح الآية (١٣٤) من سورة آل عمران في وصف المؤمنين﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٤]. وفي الحديث « ليس الشديد بالصرعة ، إنما

الشديد من يملك نفسه عند الغضب». ولا يعني كظم الغيظ الخنوع ، وإنما حل المشاكل بالحكمة والروية. كما أن من الأمور التي تساعد المؤمن على ترسيخ الصبر في نفسه،مخالطة أهل التقوى ، وتحاشي مخالطة من تسيطر أهواؤهم على نفوسهم،كما توجه الآية (٢٨) من سورة الكهف:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾[الكهف: ٢٨].

التواضع والاعتزاز:

ترشدنا الآية (٣٦) من سورة النساء إلى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ﴾ [النساء: ٣٦]. فالغرور والتكبر يحدان من قدرة الإنسان على العطاء والتفاعل مع مجتمعه. وقال النبي ﷺ« الكبر بطر الحق ،

وغمط الناس » ، للتدليل على أن المتكبر يهضم حقوق الناس ويزدريهم.

وترتبط عزة المؤمن بتمسكه بدينه وتقربه من المسلمين ، كما تدل الآية (٣٣) من سورة فصلت: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

أما المنافقون فيظنون العزة مع من ملك ظاهر الجبروت ، كما توضح الآية (٨) من سورة المنافقون ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]. ولهذا حذر الإسلام المؤمنين من أن يتخذوا من غير المسلمين المعادين لهم سنداً وموضع ولاء كما أشارات الآية (٥٧) من سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن

كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧].

ففي حين دعا الإسلام إلى الإحسان والعدل بين جميع الناس ممن لم يسيؤوا للإسلام ، فقد أمر بجهاد الظالمين منهم ، كما أوضحت الآية (٤٦) من سورة العنكبوت: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن شروط الاعتزاز تجنب عصبية النسب والجنس ، ففي الحديث الشريف « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ». كما أن من شروطه أن لا ينكر المسلم أصله فينتسب إلى قوم آخرين ، كما قال الرسول الكريم ﷺ « ليس من رجل أدعى لغير أبيه ، وهو يعلمه

إلا كفر ، ومن ادعى قوماً ليس لهم فيه نسب فليتبوأ مقعده من النار ».

ومن مظاهر الاعتزاز التعاون الذي يمد أفراد المجتمع بالقوة وقد حذر الرسول من الفردية والتفرق بقوله ﷺ « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». كذلك تجنب تقليد غير المسلمين في أمور معيشتهم دون فائدة ترجى ، كما قال المصطفى « جعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ».

القناعة والكرم:

يتخذ المؤمن تقوى الله رائده في الحياة ، فيتجنب الجشع والطمع في كسب دنيوي خاص ، كما تدل الآية (٨٣) من سورة القصص: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]. وهو يسيطر على شهواته ، مراعياً في ذلك حقوق الآخرين ، ومعوداً نفسه على القناعة.

فالمال زينة في الحياة ، يسعى المؤمن إلى تحصيله في حلال ، وبالقدر اللازم لتأمين حياة كريمة له ولمن يعيلهم. أما السعي لتحصيله بكل وسيلة ، وجمع ما يزيد عن الحاجة والتمتع بتخزينه ، فهو من الأمور التي أنكرها الإسلام لما تولده من جشع وطمع في المجتمع الإسلامي ، كما تدل الآية (٣٤) من سورة التوبة: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤]. ولذا قال النبي « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ».

والمؤمن كريم لا يبخل بما لديه ، مدرك أن المال

مال الله ، وأن إنفاقه في سبيل الله سيثمر له خيراً جما، كما توضح الآية (١٦) من سورة التغابن:﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[التغابن:١٦]. وفي الحديث « إياكم والشح ، فإنما أهلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ».

ومن ناحية أخرى ، يتجنب المؤمن الإنفاق المقترن بالترف في المعيشة ، فالترف مدعاة للكسل ولعدم تحسس حاجات الآخرين ، إذ أن من شأنه إطلاق هوى النفس للحصول على المال بأية وسيلة. وقد استنكر القرآن الكريم سعي الإنسان لتلبية مطالبه جميعاً ، كما تدل الآية (٢٤) من سورة النجم: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النجم: ٢٤]. كما ربط القرآن الكريم ما بين

العذاب الدنيوي لقوم وبين الترف الذي انغمسوا فيه ، كما أوضحت الآية (١٦) من سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦].إذ أن من يعيش حياة مترفة لا يرضى بمنهج الإسلام ، لأنه يهدد حياته القائمة على التراخي والبعد عن حاجات المجتمع ، كما أوضحت الآية (٣٤) من سورة سبأ:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سبأ: ٣٤].

العمل النافع:

قال النبي ﷺ: « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ، ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله ».

ويعني ذلك أن العمل وحده هو معيار حساب

المسلم يوم اللقاء العظيم.ويتفق هذا مع معنى الآيات (٣٩-٤١) من سورة النجم﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[النجم:٣٩– ٤١].

فما هو مفهوم العمل النافع الذي يشكل الحلقة النهائية في أهداف التربية الإسلامية؟ إن الإجابة على ذلك تقتضي- التعرف على مواصفات ومفهوم العلم النافع في ميزان الإسلام ، والذي من شأنه أن يفضي- إلى العمل النافع.

مواصفات العلم النافع:

يقول الحق في الآية (١١) من سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]. كما أوضحت الآية (٢٨) من سورة فاطر أنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨]. ويدل ذلك على أن العلم النافع هو العلم المرتبط بالإيمان ، فهو وحده القادر على إيصال الإنسان إلى الوعي الصحيح الذي يمكنه من إنجاز العمل النافع.

والعلم النافع هو ذلك الذي يستمر تحصيله وطلب الزيادة فيه مع تطور الخبرات الإنسانية وحاجاتها امتثالاً لقوله تعالى في الآية (١١٤) من سورة طه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].ولهذا العلم أثره الباقي إلى يوم الحساب ، إنه علم مستمر ومسؤول ، شرفه الخالق في مفتتح سورة القلم بأن أقسم عز وجل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١].كما أنه العلم الذي يستند إلى التمحيص والتدبر ، كما تدل آيات عديدة في تنزيل الحكيم منها الآيات (١٧-٢٠) من سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢٠]. والآية (٢٠) من سورة العنكبوت: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقد حذر الإسلام من العلم السطحي الناقص كما أوضحت الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾[البقرة: ١٠٢].

على هذا الأساس استعاذ الرسول ﷺ من مثل هذه العلوم فقال « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع. اللهم علمني ما ينفعني ، وانفعني بما علمتني ، وزدني علما ، والحمد لله على كل حال ». ففي ظل هذا الإطار الإجمالي يجدر استيعاب نظرة الإسلام إلى العلم ، ويكون تمثلنا لقوله « طلب العلم فريضة على كل مسلم ».

مواصفات العمل النافع:

وهو الهدف النهائي للتربية الإسلامية كما تمت الإشارة ويتميز بإمكانية قياسه بشكل ملموس. كما أنه مستمد بالضرورة من العلم النافع ، وبممارسته يتطور الاثنان ، العلم والعمل ، لصالح البشرية. ولعله في هذا الإطار أن اشتهر عن الإمام الغزالي قوله (العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون).

والعمل النافع شأن العلم النافع ، مستند بالضرورة إلى الإيمان بالله وتقواه. فهو الترجمة الفعلية لما يتضمنه قلب المؤمن من سعى دائب لكسب مرضاة الله. ولقد زخر القرآن الكريم بالآيات التي تذكر أن العمل النافع هو المعيار الرئيسي للإنسان يوم اللقاء العظيم ، ومن هذه الآيات الكريمة.

- الآية (٢) من سورة الملك ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

[الملك:٢].

-الآية (٩٦) من سورة الصافات: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:٩٦].

- الآية (٧) من سورة الكهف: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧].

وفي ظل هذه التوجيهات السامية ، قال الرسول ﷺ«الإيمان ما وقر في القلب ، وصدقه العمل » ، وقوله الشريف « البطالة تؤدي إلى فساد الأخلاق ». ومن آثار السلف الصالح أن عمر بن الخطاب > ، مر يوماً بقوم قاعدين فسألهم: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون ، فقال الفارق: بل أنتم المتواكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض ، وتوكل على ربه عز وجل.

من شروط العمل النافع ضرورة الإخلاص فيه

وإتقانه ، تمثلا بالحديث الشريف « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً ، أن يتقنه ».

ومن رحمة الله بعباده أن كلفهم القيام بالأعمال النافعة كل بحسب قدرته واستعداده ، فلا حساب لعبد على ما هو فوق طاقته ، كما أوضحت الآية (٢٣٣) من سورة البقرة: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٣٣].

وقد أوضح الإسلام أن مآل الإعمال غير النافعة إلى الخسارة والبطلان ، وإن لم يوح ظاهرها بذلك في المدى القصير ، شأنها في ذلك شأن العلوم المستندة إليها كما ذكرت آيات كريمة منها:

- الآية (٢٣) من سورة الفرقان: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

- الآية (٣٩) من سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩].

- الآيات (١٠٣-١٠٥) من سورة الكهف: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[الكهف: ١٠٣ – ١٠٥].

ومن الضروري الإشارة هنا ، إلى أن إنجاز المرء أي عمل نافع ليس أمراً تلقائياً سهلا ، فهو يتطلب مجاهدة وصبرا إلى جانب المعرفة والوعي السليم: ومن الطبيعي أن يمر عمل الإنسان ، كباقي أمور معيشته ، بمراحل من التجربة والخطأ. ولهذا فقد وعد الله جل وعز من آمن به واتقاه ، أن يصوب مسيرة عمله ويهديه إلى خير السبل لإنجازه كما دلت الآيتان (٧٠-٧١) من

سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

وقد ورد في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة أمثلة على الأعمال النافعة التي يحسن أن يسترشد بها المسلم ، حسب طاقته وقدرته. ومن هذه الأعمال:

- استغلال الثروات الطبيعية: ويندرج ضمنها جملة لا حدود لها من الأعمال النافعة المرتبطة بالزراعة والري ، والصناعة والتعدين ، والمياه وعلوم البخار ، وطبقات الأرض وحفظ التربة ، والهندسة ، والمحافظة على البيئة ، وغيرها من أعمال متنوعة مرتبطة بالحفاظ على تطور المجتمع. ومن الإشارات القرآنية على ذلك ما ورد في الآية (١٥) من سورة الملك:﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: ١٥]. وقد جعل الإسلام للزراعة أهمية خاصة ، لدورها في توفير الغذاء الأساسي للإنسان كما أشارات الآية (٣٥) من سورة يس: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[يس: ٣٥]. كما جاء في الحديث الشريف « إذا قامت القيامة على أحدكم ، وفي يده فسيلة فليغرسها ».

- التربية والتعليم: يأتي العمل على تنشأة أبناء المسلمين وتوجيههم إلى الفضائل ، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وفي مقدمة الأعمال التعليمية التعرف على الأحكام المتعلقة بذلك فرص عين على كل مسلم مما يستوجب تفرغ فئة من المؤمنين للتعريف بها بكل الوسائل المتاحة وحول ذلك قال ﷺ« لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ،

ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها ».

ومقابل هذا التشريف للقائمين بهذا العمل ، حذر الإسلام من يقوم به بشكل محرف مقصود ، للفوز بمصلحة دنيوية فانية ، وهدده بأقصى العقوبة ، فقال النبي ﷺ« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف – ريح – الجنة يوم القيامة ».

□□□